الحلقة السادسة عشرة

مسطفى المنفلوطي

أحمد الله، بأني لم أشارك بـ «النسيان».. الحديث عن أديب العربية «الأشهر» طوال حياته وما بعدها.. و«المظلوم» عند وفاته وهو في عنفوان رجولته.. في الثامنة والأربعين من عمره، فقد شاءت الأقدار.. أن يموت في ذات اليوم الذي تم فيه الاعتداء على حياة سعد باشا زغلول زعيم ثورة ١٩، وبطل دستور ٢٣ في الثاني عشر من يوليه من عام ١٩٢٤م بـ «الإسكندرية».. فينشغل المصريون بحادث الاعتداء على حياة سعد، وينسون وفاة «المنفلوطي» أحد أكبر القمم الرائدة في الأدب العربي..!!

لقد كرس ذلك المعنى أمير الشعراء شوقي.. وهو يؤبن المنفلوطي عندما قال:

اخــتــرت يــوم الــهــول يــومَ وداعِ
ونـعـاك في عصـفِ الـريـاح الـنـاعي
هتفت النعاةُ ضحىً فأوصَدَ دونهم
جُـرحُ الـرئـيـس.. نـافـذَ الأسـمـاعِ
من مات في فزع القيامة لم يجدْ
قـدماً تُشـيِّعُ أو حفـاوة سـاعي

ولد أديب العربية الرائد مصطفى لطفي المنفلوطي.. في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.. ومات في نهاية الربع الأول من القرن العشرين، ولكن ريادته وتأثيره في (الكتابة) الأدبية العربية، وصيغها، وأساليبها امتد به إلى نهاية قرنه وإلى يومنا هذا.. وإلى ما لا أدريه من القرون والأجيال القادمة. فقد كان صاحب نقطة التحول الكبرى في حياة الكتابة النثرية.. فقد نقلها من الركاكة إلى الطلاقة، ومن السجع والمحسنات.. إلى السلاسة والعذوبة، ومن التقعر والتقليد والمحاكاة.. إلى دفق المشاعر ودفء الأحاسيس وتأملات العقل ورؤى القلب، فقد كانت الكتابة والأساليب الأدبية قبل المنفلوطي شيئاً.. وأصبحت بعده شيئاً آخر، فإذا كان كتابه الأول «النظرات».. وهو الذي حمل منهجه في التعديل والتطوير والتغيير، وكان رسوله إلى القراء والأدباء معاً، قد تعرض لنقد مخملي من طه حسين بمقاله «نظرات على النظرات» إلا أن طه حسين نفسه.. عاد بعد ثلاث سنوات من ظهور «النظرات» الذي صدر في عام ١٩١٠م ليقول: «وُهب السيد المنفلوطي ملكة خارقة تكاد تكون طبعاً وسليقة، وإني لأقرأ له القطعة الأدبية فيخيل إليَّ من سحرها أن نفحة من هوجو تهبُّ عليَّ، فلا أكاد أتم قراءتها.. حتى أهم بإعادتها المرة بعد الأخرى. وأحمد الله أن وُجد في هذا العصر من ينفخ في هذا الهيكل البالي.. روحاً جديدة ليحيا حياة رغد وهناء».. أما أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد، وصاحب «مجلة الرسالة» الأشهر على مستوى القرن أحمد حسن الزيات، فقد قالا عنه.. ما هو أكثر وأجمل، ليقول عنه الأستاذ العقاد..

وهو الذي ما كان يعجبه العجب: «المنفلوطي.. لا يُعرف له نظير بين أعلام الأدباء الناثرين من مطلع النهضة الأدبية قبل مولده إلى ما بعد وفاته، فليس بين أدبائنا الناثرين من استطاع أن يقرِّب بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الكتابة، كما استطاع صاحب النظرات.. فالمنفلوطي قبل غيره هو الذي قارب بين الجمال والصحة على نسقه الصحيح في سهولة لفظ، ووضوح معنىً، وسلامة نغم..».

لقد كان دوره بحق شبيهاً بدور «البارودي» في الشعر لغة.. ومثيلاً لدور «شوقي» في إشراقاته ودفئه وموسيقاه صياغة وإبداعاً.

* * *

لم يدرس «المنفلوطي».. في جامعة «مونبلييه» كطه حسين.. ولا «السوربون» كالحكيم، ولكنه حفظ القرآن وهو في الحادية عشر.. وأمضى في الأزهر عشر سنوات لدراسة علوم الدين واللغة.. ثم التصق بالإمام والمفكر والأديب الشيخ محمد عبده «لصوق الولد بأبيه» وأكثَرَ من مصاحبته له في درسه، ومَقْدَمه ومُنْصَرفه عشر سنوات كاملة.. فكمُلَ من علمه ما كان ناقصاً.. كما قال كاتب حياته الدكتور محمد أبو الأنوار، أما تربيته الأدبية.. فقد تقاسمتها: بيئة أبيه الأدبية وجمعها من الأدباء والمثقفين في مدينة «منفلوط» في صعيد مصر.. على الضفة الغربية من نهر النيل، وتلك الأمهات من الكتب كـ «العقد الفريد» و«الأغاني» و«زهر الآداب»، والدواوين الشعرية كدواوين المتنبي والبحتري والشريف الرضي، أما كُتّابه الذين كان يستغرق في قرائتهم فهم ثلاثة: عبدالحميد الكاتب، وابن المقفع، وابن خلدون في مقدمته الشهيرة..

لكن صلته بالإمام محمد عبده.. أو صلته بصديقه سعد باشا، فأوصله هذا إلى الكاتب والصحفي الكبير الشيخ «علي يوسف».. صاحب جريدة «المؤيد»، ليلمع فوق صفحاتها فيما بعد بـ «نظراته» و«عبراته». وهكذا جمعت له الأقدار في المرحلة الأزهرية القاهرية من حياته إلى جانب ثقافته التراثية الانتقائية المتميزة.. ثلاثة أساتذة: إمام فقيه، وسياسي خطيب، وصحفي كاتب، ليبدأ في آخر أيامه بالأزهر «شاعراً».. لكن «الشعر» سرعان ما قاده إلى السجن عندما هجا الخديوي عباس الثاني بـ «قصيدة» وهو يستقبله عائداً من إحدى رحلاته الخارجية قائلاً:

عـــودٌ.. ولـكـن لا أقـــول حـمـيـد

وعـهـدٌ وإن طـال المـدى سيبيد

فحُكم عليه بالسجن لستة أشهر مع وضع اسمه على القائمة السوداء.. وهو الأمر الذي حرمه من تقلد الوظائف الحكومية التي كانت متاحة للعاديين من خريجي الأزهر آنذاك فضلاً عن البارزين منهم وقد كان المنفلوطي في مقدمتهم، لكن عندما أصبح صديقه سعد باشا المفتون به وزيراً للمعارف عام ١٩٠٦م.. استطاع أن يدبر له وظيفة ذات مسمى عجيب حقاً هي: «المحرر العربي».. لكن مهمتها كانت هي المهمة التي انتدب المنفلوطي نفسه لها، والتي تتمثل في «ترقية الأساليب داخل دواوين الوزارة في قراراتها ومكاتباتها، خاصة في المسائل الكبرى التي تُعد فيها المذكرات المطولة والقرارات المسهبة»..

لكن المنفلوطي لم يستمر في هذه الوظيفة التي فصَّلها سعد باشا على مواهب المنفلوطي.. إذ فُصل منها في أعقاب زيارة الرئيس الأمريكي السابع والعشرين: «تيودور روزفلت» للخرطوم عام ١٩٠٧م وهو في طريقه للقاهرة.. حيث حض السودانيين «على التمسك بالاستعمار وحكمه».. فكتبت «المؤيد» وهي الجريدة التي كرس المنفلوطي لها قلمه: ونظراته و«عبراته» تنبه (روزفلت) إلى عدم التورط في شيء من ذلك عند وصوله لـ «القاهرة»، ولكنه عندما جاءها مع ذلك.. «أنكر على المصريين أن يكونوا أهلاً لحكم أنفسهم»!! فثارت ثائرة «المصريين» وانبرى له المنفلوطي بمقال يطالب فيه بـ «محاكمة روزفلت أمام محكمة العدل».. ففصله دانلوب مستشار وزارة المعارف آنذاك.. وقد كان لكل وزير مصري مستشار إنجليزي..!!

* * *

بعيداً عن مسلسل (الفصل) من الوظائف.. الذي كان يقيله منه صديقه الحميم سعد باشا كلما حاق به.. كرس المنفلوطي قلمه لـ «نظراته» التي كان ينشرها كل خميس في المؤيد: «ليبسط فيها جمال أفكاره وسحر أسلوبه الأخاذ الذي لم يسبقه إليه أحد.. أمام قرائه وأدباء عصره، ليجمعها عام ١٩١٠ ويصدرها في أول كتبه: «النظرات» وهو يهديه لوالده وصديقيه: (الفقيه) محمد عبده.. و(السياسي) سعد باشا، ثم ليفرغ بعد ذلك لكتابه المؤثر والخلاق «العبرات».. ليهديه لصديقه الثالث رئيس تحرير المؤيد (الشيخ علي يوسف) وهو يقول له في إهدائه.. بتلك العذوبة التي بلغ بها

أسلوبه: «كان للإنشاء في مصر ديوان.. أنت رئيسه والكتّاب جميعاً عمّاله، فأما وقد اعتزلته، فائذن لأحد عمال ديوانك أن يقدم إليك كتابه هذا. تذكار وداع، تحفظ له به.. ماضي إخلاصه لك، ويحفظ لك فيه سالف أياديك عنده، وسلام على عهدك الزاهر».

لقد دوّى كتاباه «النظرات» فـ «العبرات» في أوساط القراء والأدباء معاً.. حتى لم يبق في مصر من الأدباء وطلبة العلم إلا وقرأه، ليفاجئ «المنفلوطي» الأوساط الثقافية في مصر وخارجها من أرجاء الوطن العربي برائعته الأدبية «ماجدولين».. التي نقلها إلى العربية بتصرف كبير عن رواية الكاتب الفرنسي «ألفونس كار»: «تحت ظلال الزيزفون»..

فكان عجباً أن يقوم المنفلوطي بتعريب رواية عن الفرنسية.. وهو لا يعرفها، ولا يعرف سواها من اللغات الحية كالإنجليزية أو الأسبانية أو حتى الإيطالية.. إلا أنه بسط الأمر في مقدمته للرواية عندما قال بأن «طريقته في تعريبها كانت تقوم على الاستماع إلى صديقه العالم الفاضل محمد فؤاد كمال.. الذي كان يملي عليه ترجمة أغراضها ومعانيها، ثم يعود هو إلى كتابة ما أملاه عليه بكثير من التصرف ما بين زيادة وحذف، وتقديم وتأخير.. حتى أتمها وأصدرها في عام ١٩١٧م ليقرأها ويبكي بطلتها العالم العربي كله.. ليقول أحد أشياخ الأدب «الشيخ عبدالعزيز البشري» عنها فيما بعد بأنها «مجدولين المصرية» إشارة للجهد الأدبي الكبير الذي بذله المنفلوطي في تعريبها.. حتى بدت - للقلة التي

قرأت نص الرواية - كما لو أنها - رواية مصرية مختلفة عن أصلها الفرنسي، ولقد كان من حسن حظي.. أن أتلقى في الخمسينات خلال دراستي الإعدادية تلك الرواية الرائعة هدية من صديق من أصدقائي في مكة.. لألحق بدموعي دموع من سبقوني على بطلتها الجميلة الرقيقة «ماجدولين» التي كانت تبحث عن السعادة، فخدعها المال لتختار صديق حبيبها على حبيبها. فلم تجد السعادة ولم تجد الحب.. حتى فقدت حياتها ليقتات فتاها أساه وأحزانه حتى قضى إلى جانب قبرها حباً ووفاءً.

كان نجاح رواية «ماجدولين» المصرية.. أو تحت ظلال الزيزفون الفرنسية المدوي، دافعاً للمنفلوطي لتكرار التجربة.. وبذات الطريقة.. عندما اختار بدهاء وذكاء وطني مسرحية «فرانسوا كوبيه» الفرنسي: «في سبيل التاج».. لتعريبها بنفس عنوانها عام ١٩٢٠م، وليهديها وسط غليان المصريين من أجل الاستقلال في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الأولى وانفضاض مؤتمر فرساي في «باريس» الذي أقر مبادئ الرئيس «ودرو ويلسون» في حق نيل الشعوب لاستقلالها.. إلى زعيم المطالبين باستقلال مصر آنذاك - صديقه الحميم - سعد باشا زغلول، لتكر سبحة التعريب عند المنفلوطي.. إلى مسرحية الشاعر الفرنسي «إدمون روستان» التي عربها وقدمها تحت عنوان «الشاعر».. وأخيراً إلى رواية «بول وفرجيني» للكاتب الفرنسي «برناردين دي سانبير»: «الطبيعة» التي عربها باسم «الفضيلة» وأصدرها عام ١٩٢٣.. قبل عام من وفاته الذي تزامن مع محاولة الاعتداء على سعد باشا

كما سبق وأن ذكرت، ليقول أحد العارفين بالصداقة الحميمة التي تجمع بين المنفلوطي وسعد.. لـ «كأن المنفلوطي لم يجد ما يضيفه إلى دفاعه السابق عن سعد باشا غير الفداء له»..!!

* * *

كان المنفلوطي بتجديده في اللغة وأساليبها وصياغاتها.. كالجراح الذي التف ببراعة موهبته على مواقع الضمور والتليف في بدن الكتابة العربية ليعيد إيصال الشرايين الحية في اللغة.. بعضها إلى بعض لتعود الكتابة تنبض ساحرة مشرقة من جديد، وكان بـ«تعريبه» الرائع والفريد لتلك الأعمال الفرنسية.. هو أول معرب أو مترجم لأعمال أدبية من لغة لا يعرفها.. ولكنه صنع بالأمرين حجم تأثيره الأدبي المهول على قرائه وأدباء زمانه.. الذي امتد إلى قراء وأدباء الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي وإلى أن تربع على سدته الرافعي والمازني فطه حسين والعقاد..

لقد أنصفه اعترافاً بفضله شاعر الستينات الكبير الأستاذ صلاح عبدالصبور عندما قال عنه: «كان في حد ذاته خطوة بعيدة في التطور.. يدل على خصب نفس المنفلوطي وطواعيته للتجديد، وهذا الأسلوب يختلف اختلافاً هائلاً عن أسلوب المقامات الذي قلده محمد المويلحي في «عيسى بن هشام».. بل وحافظ إبراهيم في «ليالي سطيح»..

وأحسب بذلك كله.. لم تكن مفاجأة أن يفوز الكاتب والباحث الأكاديمي الأستاذ الدكتور «محمد أبو الأنوار» على جائزة الملك

فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٩٩٥م.. تقديراً لكتابه المرجعي عن «المنفلوطي: حياته وأدبه».. والذي أصدره عام ١٩٨١م في ثلاثة أجزاء، فقد كان «المنفلوطي».. بإنجازاته الأدبية في عمومها.. واللغوية في خصوصها.. يستحق كتاباً واثنين وعشرة، فالذي أنجزه لم ينجزه أحد من قبل.